

دافيد فوستر وحيد
هذا الرجل النبيل ...
فكان يمر كل يوم منذ
التحق بمصنع أبيه
ليحسني ويش في
وجهي دون سائر
الموظفين فإد ذلك في
تعاقي بعمله وإخلاصه
له ...

عَلَى النَّبَاغِي نَدْوَرِ الدَّوَائِرِ

مترجمة عن الإنجليزية
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ أَمِيلِ فَرَج

ما هذا ... ؟! المستر فوستر يموت بعد الشقاق
ابنه بالمصنع بسنتين ... الرجل العصامي ذو الأعصاب
الفولاذية والعينين البراقتين الصريحتين يخفي حاجة
ولم تعد تراه يطوف بعالمه الخاص فيملا نفوسهم
أمنًا وهدوءًا واستقرارًا ، ولم تعد نسمع صوته
يتجاوب في فضاء المصنع صده في رنة مترنة حنون ،
ولم تعد عينه تطالعنا وترعانا في حنان وعطف
عجيبين ... مات فتولى ولده منصبه وسارت السفينة
تحمل ركبها كما كانت ... وأخذت المطارق تطرق
طرقها التقليدية المتكررة ... فقد أفل نجم وسرعان
ما أشرق نجم ... ولكنه كان قسيًا عنيداً ..

وفي سبتمبر من السنة التالية تزوجت فتاة
أحلامى : ماري جاكسون وكانت تشتغل في
المصنع بجانبى . وكانت ماري ولا تزال أجيل فتاة
في العالم في نظري ، ولم يكن وجهها جميلاً لحسب ، بل
حباها الله نفساً كريمة وقلباً كبيراً ... فتبادلتنا ثقة
خالصة وجباً جماً جعلانا في أقصى درجات السعادة
والهناء ... واشترينا منزلاً أنيقاً بيناه بخيالنا قبل
أن نشتره فصار فردوس غرامنا ومهد أحلامنا ،
وكانت حديقته الغناء مسرحاً يلهو فوقه طفلانا العزيز
(٥)

ذكريات ... ذكريات بعيدة تداعب خيالي
الآن كما تداعب يد طبيب ماهر جرحاً قارب الشفاء
فتؤلمه ألمًا محتملاً مقبولاً ...

هأنذا أرى نفسي يافعاً يسمي في طراءة سنه
لكسب عيشه فيصبح عاملاً في مصنع كبير يحوى
أغلب شبان المدينة ... وكان لترددى على مدرسة
ليلية لأتعم مسك الدفاتر الفضل في رضا المستر فوستر
صاحب المصنع على ، وبذلك فتح أمامي باب الرقي حتى
بلغت درجة رئيس قسم من أقسامه الكبيرة . لقد
كان صاحب المصنع رجلاً عصامياً عطوفاً فشملى
بعطفه ، وكلائي بعنايته ، فكنت به معجباً وله مخلصاً ،
وكان بي غوراً ولى أياً حنوناً ...

لن أنسى هذا الرجل ماحيت ، لأنه استطاع
بلطفه وحنانه وحبه العجيب لعمله أن يطبع في
نفوس موظفيه وخاصة في نفسي ذكري لا تمحى ...
فكان الرجل النبيل العطوف في حياته ، والشخص
المقدس الخالد في مماته ...

كنت سعيداً مقتبطاً بهذا المنصب الكبير
الذي أسند إلي وبفضله صرت من رجال
المدينة البارزين ؛ وكان من أسباب سرورى وجود

الصداقة التينة تنشأ بين طفلين ذكر وأنثى .
وقد كان من الطبيعي أن ترى بيتر في الرابعة عشرة
من عمره السعيد لا يفارق أدبث إلا في وقت
المذاكرة والنوم . أي نحر كان يملائي عند ما أرى
الصداقة تزداد متانة بين الطفلين ! إنها أمنيته ...
إنها سعادتي ... إنها حلمي اللذيذ ... ولكن
الدهشة كادت تصرعني في عصر يوم من أيام
الصيف الهادئة عند ما فاجأني دافيد بزيارة في مكتبي
وقال بعد عبارات المجاملة المألوفة :

— ألا تعلم ياهيرون أن ولدك يركب العربية
مع ابنتي أدبث في ذهابها وإيابها من المدرسة كل
يوم ... ؟

فابتسمت وأجبتته بهدوء :

— أجل ... لقد عرفت ذلك منذ بضع سنين

— لا أرى أن هذا من اللائق المستحسن ...

خير لك أن تمنع ولدك من الركوب مع ابنتي
وبدون انتظار لجواب ... خرج مسرعاً من
غرفتي وبقيت أنا ذاهلاً بضع دقائق أفكر في لاشيء ،
لقد دعت الفتاة بيتر لرافقتها من تلقاء نفسها فما سر
هذا الامتناع ؟ ... لا بد أن يكون دافيد فوستر
مخطئاً ظاناً ... لقد صار كل من الطفلين للآخر
ضرورة من ضرورات الحياة ...

وعند ما أخبرت ماري بما جرى أجابتنى في
هدوء ورزانة :

— هذه هي غريزة الأبوة ... لاشيء سوى

أن أبا أراد أن يحمي ابنته الوحيدة

فأجبتها نائراً :

— كلا : كلا :

ولكنها ابتسمت ابتسامة رزينة وقالت :

بيتر فيملاًها مرحاً وحياة فما أسعدني بالحياة بين
هذين القلبين الحبيبين ...

ولم يكذب بيتر العزير يبلغ من العمر سنتين حتى
تزوج دافيد فتاة جميلة مريحة وهي ابنة أحد أثرياء
جنوب إنجلترا . وكانت تبعث في الجو حولها لوناً
جميلاً من الصراحة والألفة . فتصادقت هي وماري ؛
وكانت أحب الساعات إلى هذه السيدة الكريمة تلك
الساعة التي تداعب فيها طفلنا الحبيب ، لأنها كانت
لا تمنى شيئاً في الحياة إلا أن يرزقها الله طفلاً
جميلاً ... وهكذا نالت أمنيته وولدت طفلة جميلة
ظريفة سميتها — أدبث — وكانت قرة عين والديها
ومعقد آمالهما ...

ومرت السنون متتابعة وأقبلت علينا الحياة
بوجهها الضاحك الصبوح ، واستطعنا في هذه المدة
أن ندخر مبلغاً لا بأس به ليكون لنا عوناً على تعليم
ولدنا بيتر ... وكنت في ذلك الوقت راغباً في أن
أصير أباً لأطفال كثيرين ولكن الله شاء أن يجعل
بيتر زهرتنا الوحيدة فقصرنا جهودنا على أن نوفو
له السعادة والسيادة ... وشب بيتر صيلاً جميلاً رأيت
من خلال عينيه الصافيتين معاني الرجولة النبيلة
والأخلاق الدمشية . وكذلك نشأت أدبث ابنة
دافيد فوستر حلوة جميلة كأمرها واعتادت الفتاة أن
تذهب إلى مدرسة البنات بجانب مدرسة بيتر —
فكانت تمر في طريقها بمنزلنا فتحينا تحية رقيقة
ثم تمضي . وما مضت مدة طويلة حتى أصرت
أدبث على أن يصحبها بيتر في عربتها كل صباح
ويرجع برفقتها كل مساء ... وهكذا كان ...
وكنت أنا وماري نراقب صداقة الطفلين بسرور
ونؤمل ما يؤمله كل أب وأم عند ما يريان تلك

الرقباء ... وقد أخبرت زوجتي بهذا الحادث
ولكننا كسائر الآباء ينشدون الخير لأولادهم، فبُستمت
مارى وأيقنت في هذه اللحظة أن حرمان أديث من
مرافقة بيتر كما تحب شجعها على مرافقته سرّاً بين
الغابات وفي الخلوات ... وعلى كل فقد تركنا الأمور
تسير كما يشاء الله ...

وفي الليلة التالية فوجئت بزيارة دافيد لمنزلى .
وما كادت مارى ترى العلامات الغامضة التي ارتسمت
على وجهه وبريق الخلق يشع من عينيه القاسيتين
حتى توقعت شرّاً .

وواجهنى دافيد بوجهه المتجهم قائلاً :
— ألا تعلم يا هيرن أن ابنك رآه الناس يخرج
مع ابنتى فى كثير من المناسبات إلى الغابات ويخلو
بها ... قد تكون يا عزيزى علاقتهما مجرد صداقة
بين فتى وفتاة ، ولكن الصداقة فى مثل سَهما لا تحمد
عواقبها .

عند ذلك أجبتُه باقتضاب :

وبعد ؟ !

— يجب أن يتعمد بيتر عن أديث لأنى أخاف
عليها ككاث الحب التي تعد فى مثل هذه السن
المبكرة جريمة .

لم أجد شيئاً أقوله فى هذه اللحظة ، ومع ذلك
تمتت قائلاً :

— سأمنع بيتر من الاختلاط بابنتك يا ماستر
فوستر ؛ وعلى كل حال سيرحل ابني عما قريب
للاتحاق بكلية الطب . وفى خلال السنوات الست
المقبلة لا يتمكن بيتر من رؤية ابنتك ...
فأجابنى الرجل ورنه الفرح تهز كيانه :

... بل يا عزيزى إنه السلوك الوحيد الذى يلبنى
لأب مثل دافيد أن يسلكه

— ولكن كيف تستطيعين منع بيتر ؟ ... كيف
تخبرينه عند ما يحب ... ؟

ولما جاء بيتر فى الساعة الثامنة مساءً بعد أن
انتهى من واجباته قالت له أمه :

— هناك شىء مهم أريد أن أفضى به اليك
يا عزيزى بيتر

— ماذا يا أماء ؟

— مسألة ركوبك العربى مع أديث يا بيتر ...
إننى أراها يا عزيزى أنانية منك لأنك تركب كل يوم
معهما فى حين أن هناك أطفالاً فى سنّها يودون
الركوب معها كذلك

— سوف لا أركب معها ثانية يا أماء ، لأنى
أرغب فى التأخر فى المدرسة بعد انصرافها لأمارس
بعض الألعاب الرياضية وهي لا تنهى حتى اللعب ، بل
تظل تصرخ فى الخارج حتى أترك العاني وأذهب معها .
سوف لا أرافقها مرة ثانية ...

— ما أطيب قلبك يا بيتر ...

وكذلك أمر دافيد ابنته أن تمتنع من دعوة
بيتر للركوب ... وقد امتثلت أمره بعد عصيان
وتمرد شديدين .

وفى سن السابعة عشرة ترك ولدى المدرسة
وعزم على دراسة الطب ... وما كان أشوقنى إلى أن
أرى ابني العزيز طبيباً شهيراً فأكون بذلك قد
حققت أعز أمانى فى الحياة .

ولم يكن غريباً أن أرى بيتر الشاب المراهق
وأدith الفتاة الناهد يسيران جنباً إلى جنب فى
إحدى الغابات للترهة والنجوى بعيداً عن أعين

— هذا حسن ... هذا جميل يا صديق ... إنني أشكر لك فضلك ...

ثم انصرف الأب بعد أن اطمأن على مستقبل ابنته كجندى غادر ميدان القتال منتصراً مزهواً ...
أى انتصار أيها الرجل القاسى ... ؟ : أتفخر أنك حرمت ابنتك الحب وقيدتها بقيد ، وضنت على ابني أن يتذوق السعادة ؟ أنت غطيت ... بل مجرم ...
وفي هذه الليلة الثقيلة الحزينة أفضيت إلى بيتي بما جرى بيني وبين المستر فوستر وزجوته أن يكف عن لقاء ابنته .

ظل بيتر صامتاً يفكر ... ثم نظر إلى الأرض نظرة شاردة وقال كأنه يخاطب نفسه :

لقد أحبت أديث يا أبي أكثر من أى فتاة في العالم ... فهي ... فتاة عجيبة ، لقد رغبت في أن أكون طبيباً شهيراً في يوم ما ، وقد عزمت على انتظارى حتى أسجل اسمي بين الأطباء بحروف من جد ومجد ...

ومرت فترة صمت قصيرة قطعها ماري قائلة :
— حقاً إنها فتاة عجيبة ، فهي من النوع الذي يولد الحرارة والاقدام في نفوس الشباب ...
— هو كذلك يا أماء ... كنا أصدقاء ، وكنا عازمين على أن نظل أصدقاء حتى ...

ثم أطلق المسكين حزيباً ولكن أمه قالت بسرعة :

— حتى تصير طبيباً شهيراً
فأومأ بيتر موافقاً ثم طوى أمه بذراعيه وقال لها متسائلاً :

— لقد فهمت يا أماء ... لقد فهمت ...
— أجل يا ولدى العزيز ... لقد فهمت ...

إن العالم جميل ساحر في عينيك وعيني أديث ...
كلارك في شبابكما القمص الجليل رسم صوراً فائقة لمستقبل الزاهر ... أجل يا بيتر ، قد تكون الأحلام رائمة يا ولدى ولكنها تكون أروع وأدهش لو تشبعت بالحقيقة ... إنني أرجو يا ولدى العزيز أن تستمر ذكرياتك عن أديث عزيزة محبوبة كما كانت لأنها ستحفظك نقياً ... صادقاً ... شريفاً في معصرة الحياة وزوابع الشباب ... احتفظ بذكرياتك ... واجعلها تعويدتك المقدسة في إبان نضالك في الكلية ... وبعد ذلك عند ما تبلغ أمنيته وتصبح أديث امرأة ناضجة ستعرفان قيمة هذه الذكريات ... وتعرفان أنها السلاح الماضي الذي حاربتما به حادثات الدهر ونوائب الزمان ... ولدى ...

ثم ضمته إلى أحضانها وراحت تقبله بحنان وعطف ... وأخيراً قال :

— سوف لا أراها يا أماء ... سأحرم نفسي لقاءها ...

وعند ما تركنا نينا م شعرت بالفخر يلمس قلبي في عذوبة وليونة لأن بيتر أصبح رجلاً نبيلاً ... فما أسعدني بك يا ولدى ! يباركك الله وليبارك رجولتك

وبعد شهر قضاه المستر دافيد في الأجازة خارج المصنع ، وفي يوم رجوعه إلى المدينة من مصيفه استدعاني إلى مكتبه الخاص ، وبعد التحية العادية خاطبني قائلاً :

— إنني أريد أن أدلى اليك بشيء يا هيرن .
وقبل ذلك هل لي أن أسألك عما إذا كنت سعيداً في وظيفتك في هذا المصنع ...

— سأريق دمي في سبيل الحيلولة دون هذا

الزواج

عند ذلك تصاعد الدم جازاً إلى رأسي وامتلأ قلبي بالغليظ ولكنني استطعت أن أمكك نفسي وأحتفظ بصوتي رائقاً هادئاً كما كان قلت :

— مستر دافيد ... إنني أحب الرفعة لولدي كما تحب السعادة لابنتك ... إن مستقبله هورسالتى فى الحياة فلا بد أن أؤديها بأمانة وإخلاص ... لقد أراد أن يصير طبيباً فرأيت سعادتي وسعادته فى اختياره المهنة التى أرادها ... فالطب هو مهنته التى خلق لها ولن ينجح إلا بممارستها ، فجعله فى وظيفتي وهو يريد خدمة المجتمع جريمة هائلة ... محال بإسدي أن أقترفها ...

عند ذلك نفت دافيد دخان سيجارته بشراهة ثم قال ...

— إذن أنت ترفض أن تدخل ابنك مصني .. أليس كذلك ؟ ... لعلك خلتي منفلاً منهوراً عند ما طلبت منك هذا الطلب

— منهور ... ؟ أجل ، فطلب مثل هذا يستند إلى حب صبياني نافه هو عين التهور والقسوة ... — حسن ... ولكنني مازلت متمسكاً بمطلبي وتستطيع أن تشاور زوجتك وتخبرني عما استقر عليه رأيك ...

— لا حاجة لى بمشاورة زوجتي ... فإنها سترفض طلبك كما رفضت

— على كل حال ... دعني أعرف قرارك فى الغد ، وإذا كان بالرفض فأرجو أن ألقى معه استقالتك فأجبهته بهدوء قاتل :

— ولماذا تنتظر للغد ... ؟ لك أن تعتبرني مستقبلاً من الآن ... سيذهب ولدي إلى الكلية ..

ولأول مرة فى حياة هذا الرجل القاسى الجبار رأيتة يحيد عن جادة الصواب ويخرج عن حد اللياقة إذ قال لى بانفعال :

— إنك رجل غر مغفل لأنك لا تدري من أين يأتيك خبرك ...

عند ذلك لم أستطع أن أحتمل ... فرميته بنظرة فلسية متكبرة ، ثم مضيت خارجاً من غرفته ساعياً كالآلة الصماء إلى مكنتي حيث شعرت بانعب والضعف يستوليان على أعصابي وبرغبة ملحة فى البكاء ، ... واستولت على الأفكار السود فقلت فى نفسي

الرجل الذى طوقني بمطفه وإحسانه شاباً ورعاً بخبائه ورضاه رجلاً يطردي ولده الآن ! كأن ذلك التاريخ الجميل وتلك الذكريات العذبة لم تستطع أن تجعله على أن يحترم شيخوختي ويذكر صادق خدماتي لأبيه ...

ولم يكن من السهل على رجل مثلي مضى أمام مكتبه أجل أيام شبابه ورجولته أن يترك ذلك المكتب العزيز إلى الأبد ... وقد كانت الساعة السادسة مساءً عند ما خرجت حزينة تاركاً ورائي مجال الشباب ومصرع الرجولة ... وسعيت ببطء قاتل نحو منزلي لأخبر زوجتي المسكينة بهذا الخبر الفظيع ...

وقضينا مدة طويلة فى ترتيب المستقبل الصالح لبيتر العزيز ... وكانت النقود التى ادخرناها طيلة

هذه المدة كافية بأن نبلغ بولدنا المكنة التي تصبو إليها نفسه . . .

وفي الصباح سألتني بيتر . . . لماذا لم أذهب إلى المصنع كالمادة ؟ فأجبتني بأن خلافاً بسيطاً حدث بيني وبين المستر دافيد استقلت على أثره من وظيفتي .

لم يصدقني ولدى فكرر السؤال على ماري فأجبتني نفس الإجابة بدون اكتراث . . . ثم ابتسمت فابتسم بيتر وقال :

— إذا كنتم أنتم أصحاب الشأن لا تهتمان فلماذا تهتم أنا ؟ . . . إنني أستطيع أن أرى أدب الآن . . . إذا أدوت . . .

— لا يا بيتر . . . لن تراها . . . ! إن الرجل لا يخفى بوعده . . .

— كما تريد يا أبي . . . لن أراها . . .

ثم خرج بعد أن شملنا بنظرة حنون ملأت قلوبنا راحة وسكينة وجعلتنا نثق بالمستقبل الذي كان منذ لحظة مظلمة كريهاً

وبعد خروجه استطاعت ماري أن تقنعني أن نحل بيتر من وعد لا مبرر له الآن فقد امتنع عن رؤية أدب لأنك كنت موظفاً عند والدها، ولكنك الآن حر طليق ، فمن الحرام أن يتقيد شاب في مثل سنه بقيد ثقيل على قلبه الشاب . . . ثم اتفقنا على إخباره بذلك القرار عند رجوعه

ولكن . . . ولكن ما كاد بيتر يلج باب المنزل في عصر هذا اليوم . . . ولم يكذبنا بوجهه المنقبض الحزين وعينيه الباكيتين الشاكيتين حتى أدركنا أن هناك أمراً محزناً قد وقع لولدنا الحبيب .

نهضت الأم الحنون مبرولة إلى غرفة ولدها ، ولما رجعت بعد نصف ساعة رأيت جفنيها مخضلتين بالدموع

— لقد لقي بيتر أدب في الطريق ولما لم يكلمها كما وعدنا . . . أسمته كلاماً جارحاً وقالت له إن حبه لم يعد يساوي شيئاً لديها . . .

فأجبتها باستغراب :

— لقد تحدثنا عن الحب ؟ . . .

— أجل . . . لقد بكى المسكين في أحضاني .. وإني لأول مرة أراه فيها يبكي منذ سنين . . . لقد بكى لأن الفتاة احتقرته وآلمته . . . ولذلك أخبرته أنه في حل من وعده . . . وله أن يقابلها في الغد ويشرح لها كل شيء . . . ولكنه رفض . . .

لم أجد شيئاً أقوله في هذا الوقت ، ولكن ماري استطردت تقول بصوتها الحزين :

— لا بد أن يكون دافيد فوستر مستريحاً الآن . . . لقد حقق الشقي غرضه على أنقاض ذنبك القلبين الشابين . . . وسيذهب بيتر إلى كلية الطب واللوعة ترافقه لأن الفتاة التي أحبها احتقرته . . . وكم كنت أتمنى من صميم قلبي أن ترافق بيتر في سفره ذكرياته العزيزة وجه الطاهر الشريف ليقابل حياة الاغتراب بقلب محصن ونفس جزلة . . .

ثم قالت أخيراً بصوت منكسر :

— قد يظن المسكين أننا حرمانه متعة الحب فيرمينا بالقسوة

فأجبتها بلهفة وحزن :

— ألا يمكن يا ماري أن نخبري أدب بالحقيقة

ما احتملت ... اليوم الذى ذهبت فيه إلى المحطة
لأستقبل بيتر العزيز يحمل لقبه الساحر « دكتور »
وقد استقر رأينا على أن يلتحق بيتر بمستشفى

في الجنوب ليكمل تمرينه ، في عصر يوم
أقبل الدكتور كرولي طبيب العائلة وقال إنه يود أن
يلحق بيتر بمستشفى مدينتنا الذى بناه والد دافيد
منذ زمن بعيد ... وفيه ثلاثة أطباء حطمتهم السن
العالية ولا يقوون على مشاق السفر ليلا لإسعاف
المرضى ... حينئذ قالت ماري وبريق الانحجاب والزهو
بشع من عينها :

— إننى أريدك بجانبى يا بيتر العزيز ...

فأجابها بصوت منخفض حنون :

سأبقى بجانبك يا أماء .. سأعمل بالمستشفى .
وفي خلال سنة اشتهر الدكتور بيتر شهرة
مستفيضة . . وأصبح طبيب جميع العائلات المحترمة
في المدينة وخاصة في الحالات الخطيرة المستعصية .
ومما هو جدير بانه ذكر أن بيتر لم يجاهد أدب
في خلال السنتين اللتين قضاهما في المستشفى كما
أنه لم يذكر اسمها أمامه إلا مرتين ... وفي كل
مرة كانت تغشى عينيه سجاية من الحزن الدفين .
وأظنه كان عاكفاً أنها سافرت منذ أن حل بالمدينة
في رحلة طويلة لتكون بعيدة عنه . . . وكان أبواها
هما اللذين دبرا ذلك ...

لا أدري أية دهشة استولت علينا أنا وماري
في عصر ذلك اليوم الجميل من أيام الربيع الهادئة
حينما دخل علينا المنزل دافيد فوستر وهو يتسم
ابتسامته البغضية القاتلة ... ويقول من غير مقدمة :

حتى تتصافى القلوب وترجع المياه إلى مجاريها
— لقد فات الوقت ... وأريد الآن أن أفكر
في مستقبله لا في حبه ..

وفي الغد رأيت بيتر صاحب الوجه ... ذابل
العينين ... حزين النفس من جراء ما قساه الباردة
فظل طيلة اليوم مفكراً صامتاً ...

ومرت السنون متتابعة متشابهة ... نال بيتر
في خلالها أجازة الطب ... وأنا لم أرجع إلى مصنعى
القديم ، ودافيد فوستر لم يسأل عنى وكأنه لم يعرفنى
لقد قسيت كثيراً في بادى الأمر حتى التحقت
بمصنع للأثاث ... وكان مرتبى ضئيلاً إذا قورن
بذلك المرتب الذى كنت أتعاضده من مصنعى القديم ..
ولكنى استطعت أن أعيش به مستريحاً قنعاً حراً
بعيداً عن سطوة ذلك الرجل الكريه ... فتعلم ابنى
كما أراد وحقق آماله وآمالنا ...

وبينما كان بيتر يسعى في تلك السنين نحو المجد
والنجاح ... كانت رفيقة صباه أدب تسمى نحو الزهو
والهو ... فاندجبت في حياة صاحبة ماجنة ...

كانت لا تذهب إلى الكنيسة ... لأنه من
المسير أن توفق فتاة لعوب بين رغبات الجسد
الجامحة ... ونداءات النفس الصالحة ... لقد هجرها
بيتر ومضى يسير لمستقبله ومجده يقوده صوت الضمير
اليقظان فراح تثار لجها وتنقم لنفسها من ظلم
القسوة القاهرة . . . فكرهت والدها وأصبحت
لا تكلمه إلا قليلاً

وبعد مضي ست سنوات أقبل اليوم الذى
صحيت من أجله ما صحيت . واحتملت في سبيله

وسعادة الحياة ... ثم تريدني الآن على أن أتخذ اسم
ابنتك وسمة أسرته ...؟ كلا ... فلن يدنس ولدي
مهنته الشريفة ...

عند ذلك قام كنمر مفترس محبوس في قفص
ضيق مربع ، ثم واجهني واقتربت عيناه من عيني
وراح يحملي فيهما بشراسة غريبة ثم قال :

— هل تعني ماذا يعني رفضك هذا ... ؟ إذا
أعدتكم إلى وظيفتك تحمل ولدك على أداء ما طلبته
منك ؟ ...

— كلا ... وإن ما يدهشي الآن أنك أتيت
إلى أنا ... لماذا لم تذهب إلى طبيب آخر ...

— لقد ظننت أنني أجدهم المساعدة منك أنت
— إنك لا تقدر خطورة سؤالك هذا ...

إنك تريد أن تجعل ولدي يدنس شرف مهنته ...
إن الأطباء لم يخلقوا ليحطموا الحياة بل لينقذوها
عند ذلك دنا الرجل مني حتى التصق بي ونظر
إلى نظرة ذليلة ثم قال :

— أنسيت ما صنعه أبي لك ..؟ ربما أكون
قد عاملتك بقسوة وهأنذا أعترف بأنني كنت مخطئاً
وقاسياً ، ولكن أبي قد استخدمك صيغاً وصادقك
رجلاً فاستطعت بفضل معونته ومحبتة أن تشتري
منزلك الذي تسكنه ... وتعلم ابنتك المهنة التي أرادها
هل نسيت هذا ؟ ... هل أستطيع ياسيدي أن أتقدم
إليك بطلي باسم تلك الذكريات العزيزة التي ربطتك
بوالدي برباط مقدس جليل ... ما ذا كان لك أبي ؟
وماذا فعلت من أجله ... ؟

ونظرت إليه بصمت حزين ... ثم قلت بصوت
منخفض تشوبه ارتعاشة خفيفة :

— إنني أقدر هذه الذكريات بأدافيد فوستر ...
وإنني لمستعد أن أساعدك في كل عمل شريف
ولكنك تطلب مني أن أمالك على عمل ذني ،
فقال بعد أن رماني بنظرة ذليلة كسيرة :

— سأذهب إلى ابنتك نفسه وأقدم إليه أجرأ
يكفيه أكثر حياته ...

— تستطيع أن تجده ياسيدي في المستشفى
ولحظة دق جرس التلفون فتناولت السماعة وإذا
بصوت بيتر يصل إلى من خلال الأسلاك الدقيقة
متهدجاً ... مضطرباً :

— هالو ... بابا ... إنني أعتذر عن العشاء
في هذا المساء لأنني ذاهب إلى منزل دافيد فوستر
فإن ابنته إديث على وشك أن تموت

وسمعت ولدي يضع السماعة ولكني لم أجده
القوة لأضعها ... وكان دافيد فوستر يمشي في الغرفة
بخطوات بطيئة تعبئة منكساً رأسه في حزن عميق
فناديته ...

— دافيد ... دافيد فوستر ... انتظر ...
انتظر دقيقة ...

التفت المسكين بسرعة ونظر إلى نظرة متسائلة ..
متوسلة ... فشمرت في هذه اللحظة أن الرجل
قد تحطمت كبرياؤه ونقطع قلبه وتقدم عشرين سنة
فبدا شيخاً حزينا ذليلاً ... وأمام هذا المنظر
وهذه الشيخوخة التعمسة ... تسدت عيني
بالدموع ثم قلت :

— لقد قال لي ولدي الآن أن زوجتك استعدته
بالتلفون فأجابني باكياً :

— استدعى إلى منزلي ... آه ... ألم تمت

دافيد فوستر بصوت مبجوح كصوت نصل حاد
يجري على شيء صلب قس:

— إديث ... إديث

فأجابه المرأة الشجاعة بصوت أرادت أن تجعله
قويا حاسما فكانت منها كذبة هائلة لأنها لم تستطع
المقاومة فقالت:

— لقد ... ماتت ابنتك منذ ساعة كما قال

بيتر ... لقد انتحرت

عندئذ نظر إليها زوجها بيلادة وبلاهة كما
لا يدرك حقيقة موقفه وقال:

— ماتت؟ كيف...؟ أريد أن أراها... أريد

أن أرى ابنتي الصغيرة العزيرة، أريد...

فأجابه زوجته بحنان:

— نستطيع أن نراها بعد برهة قصيرة يدافيد.

إن بيتر معها في الغرفة... لقد ماتت وصورته لاصقة
بصدرها...

— أجل... بيتر هيرن... لقد ذهبت إديث

بحبه إلى السماء...

ما هذا... ما هذا الشقاء الذي حاق بهذين
الرأسين الأشيبين؟ لقد شمعت بالدموع تنهر على
خدي فرأيت من خلالها دافيد فوستر يقف ذاهلا
كرجل ضعيف تحت تأثير منوم مغناطيسي... حينئذ
قالت الأم الحزينة:

— يجب أن ندع بيتر يتناول حبيبته الصغيرة

الميتة بين ذراعيه برهة قصيرة...

فانفجر دافيد من الحزن والحق وأراد أن يقول

شيئا ولكن زوجته أسكته بنظرة صارمة حازمة
ثم قالت:

إديث؟... أخبرني... لقد قالت إنها ستنتحر...
أخبرني بربك... أخبرني...

فأجبهه ببطء:

— لا أعرف سوى أن بيتر في طريقه إلى
منزلكم...

عند ذلك تطرح المسكين على مقعد بجانبه ثم
راح يتمتم في همس حزين:

— ابنتي الصغيرة... ابنتي الصغيرة...

لقد عزمت على أن تفارقنا للأبد... للأبد...

— دعني أوصلك إلى منزلك... ربما تكون في

حالة خير مما تظن... إن كان هناك أمل في شفائها

فيتر سينقذها حتما...

فأجابه كرجل نائم تحت تأثير حلم هائل:

— سينقذها بيتر...

وقد ساعدته على النزول وأركبته العربدة...

وفي أثناء الطريق راح يتمتم في حشرجة خفيفة...

« سينقذها بيتر »

وعند ما بلغنا المنزل... شعرنا بجو من

الكتابة يكاد يخنقنا... شعور منهم لاندري كنهه

ولكنه تحقق حين رأينا الخدم واقفين بوجوم

وحزن... بعضهم ذاهل وبعضهم يبكي

لا أدري كيف قدت الرجل المحطم إلى داخل

منزله... ولكنني أفقت حيناً رأيت زوجته جالسة

كحيوان عاجز كسير حرم أطفاله قسراً...

ولكنها حين رأتنا وقفت بكبرياء عجيبة...

وكندى في ميدان الحرب لا يجد بداً من إبداء

شجاعته وإلا هلك، وقفت تواجهنا بوجهها الأصفر

الهزيل وعينيها الباكيتين... عند ذلك همس

— إن الله معهما الآن يا دافيد ... وسيعلم بيتر
أن ابنتي قد أحبته ... وأن روحها نقية طاهرة ..
لأنها أحبته ...

وجلس دافيد فوستر بجانب الأم الحزينة وأسند
رأسه فوق صدرها كطفل تعب منهدم ينشد الراحة
بين أحضان أمه الحنون، ثم دفن وجهه في صدرها
وراح يهتز كريحشة في مهب الرياح ... ثم بكى ...
وفي هذه اللحظة خرج بيتر من الحجرة أصغر
الوجه، ساهم العينين، غائب الحواس، كأنه
إنسان صناع يسير بقوة أجنبية عنه ... ودون أن
يدري تقدم نحو السيدة فوستر ففتحت المسكنة له
ذراعها فاستقر بينهما ... وهو يهمس بصوت أبع:
— أشكر لك يا سيدتي عطفك على هذه الليلة..
فأجابه المسكنة:

— نباركك الله يا ولدي العزيز ...

كنت أود أن أحبك كوالدي ... كنت أود..
فلم أقو على احتمال هذا المنظر ولا على سماع هذا
الكلام، فخرجت وكأني أخرج من قبر مظلم، ثم
لحق بي بيتر وقال وهو يتسم بالتسامية بأكية متجلدة:
— سأذهب للمستشفى الآن ... وسألحق بك
إلى المنزل ... إلى اللقاء يا ولدي ...

ودار الفلك دوراته المنتظمة المتعاقبة وما زال
ولدى في المستشفى لا يبرحه
وقد خيط في رأسه الشيب ولم يتجاوز الخامسة
والثلاثين من عمره .. وقلما تحده مشغولا بغير مهنته..
ويستطيع كل زائر أن يرى سيدة جميلة وقورة
ترور المستشفى كل يوم ترجو من الدكتور بيتر أن
يقول لها إذا كان في الناس من يحتاج لشيء ... أم

شابة تحتاج إلى مال أو ملابس ... روح معذبة
مظلومة تنشد الراحة والهناء ... كذلك كان زوج
هذه السيدة قد اعتزل العالم وأصبح زاهداً فيه ...
يتردد بين عمله ومنزله ... وقد عرف أخيراً أنه
هو أحسن العظم الذي بنى جناحاً آخر المستشفى
وأنه الكريم الذي لا يرد سائلاً، ولا ينجيب راجياً ...
يساعد اليتيم، وينصف المظلوم، ويعاون الأرمال
على العيش، ويساعد الفقراء على الزواج
يرجو بذلك أن يكفر عن ذنب اقترفه .. إذ سلب
ابنته الحب والحياة ... وسلب ابني الراحة والسعادة
يريد أن يكفر ... أجل يكفر ... ليبلغ سلام
النفس وما هو بيا نفعه
رباه! في أي حال نحن أسعد ... ؟
أفي الحب؟ أم في الاحسان؟ ... أم
في الموت؟ ...

أميل فرج

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التمن ١٢ قرشاً